المحاضرة الخامسة:

بكر بن حماد التيهرتي

أولا_ مولده ونشأته:

هو أبو عبد الرحمن بكر بن حماد بن سهل بن أبي اسماعيل الزناتي. نشأ بتيهرت، وارتحل إلى المشرق في حداثة سنه واجتمع بأدبائها مثل: أبي تمام، وعلي بن الجهم، وصريع الغواني، ودعبل. ثم عاد إلى القيروان وسمع لسحنون المالكي وغيره، وجلس بها للحديث. ثم ارتحل إلى تيهرت ومعه ولده عبد الرحمن، فاعترضه لصوص جرحوه وقتلوا ولده! قال الباروني عن المراكشي: وكانت وفاته بقلعة ابن حمة جو في مدينة تيهرت سنة 296 هـ وهو ابن ست وتسعين سنة. وكان ثقة مأمونا حافظا للحديث. قال عنه الباروني: ذكره يوسف بن إبراهيم الورجلاني في سلسلة حديث رواه بكتابه الدليل والبرهان. ومن هنا تعلم أن ثقته متفق عليها يروي عنه الخوارج وغيرهم.

ثانيا_ شعره: كان بكر نابغة في الأدب، اشتهر بالشعر، وله القصائد الطويلة الجيدة في الأغراض المختلفة من غزل ووصف ومديح وهجاء ورثاء واعتذار وزهد ووعظ. مدح الملوك والأمراء بالمشرق والمغرب وعارض دعبل من متعصبة الشيعة، وعمران بن حطان من الخوارج.

وذكر الحافظ التنسي كلمته في معارضة مدح عمران بن حطان لابن ملجم على فعلته. وذكرها المسعودي أيضا في مروج الذهب، ولكن لم ينسبها لأحد، ونسبت له في طبقات الشافعية الكبرى. وهي هذه:

قل لابن ملجم–والأقدار غالبة– *** هدمت– ويلك– للإسلام أكانا
قتلت أفضل من يمشي على قدم *** وأول الناس إسلاما وإيمانا
وأعلم الناس بالقرآن ثم بما *** سن الرسول لنا شرعا وتبيانا
صهر النبي ومولاه وناصره *** أضحت مناقبه نورا وبرهانا
وكان منه– على رغم الحسود له– *** مكان هارون من موسى بن عمرانا
وكان في الحرب سيفا صارما ذكرا *** ليثا إذا لقي الأقران أقرانا
ذكرت قاتله، والدمع منحدر*** فقلت سبحان رب الناس سبحانا!!
إني لأحسبه ما كان من بشر *** يخشى المعاد ولكن كان شيطانا
اشقى مراد إذا عدت قبائلها *** وأخسر الناس عند الله ميزانا
كعاقر الناقة الأولى التي جلبت *** على ثمود بأرض الحجر خسرانا

قد كان يخبرهم أن سوف يخضبها *** قبل المنية أزمانا فأزمانا
فلا عفا الله عنه ما تحمله *** ولا سقى قبر عمران بن حطانا
لقوله في شقي ظل مجترما *** ونال ما ناله ظلما وعدوانا
"يا ضربة من تقي ما أراد بها *** إلا ليبلغ من ذي العرش رضوانا"
بل ضربة من ذوي أورثته لظى *** مخلدا قد اتى الرحمن غضبانا
كأنه لم يرد قصدا بضربته *** إلا ليصلى عذاب الخلد نيرانا

ومما روى له **التنسي** في الدار والعقيان قوله:

تبارك من ساس الأمور بعلمه *** وذل له أهل السموات والأرض
ومن قسم الأرزاق بين عباده *** وفضل بعض الناس فيها على بعض
فمن ظن أن الحرص فيها يزيده ***فقولوا له يزداد في الطول والعرض

وشعره كثير تناقله الرواة شرقا وغربا، ومنه قطع مبعثرة في بطون الكتب يحتاج في جمعها إلى عناية أدبية وغيرة قومية. وتنبيه لفضله.

ومن شعره في وصف برد تيهرت:

ما أخشن البرد وريعانه*** وأطرف الشمس بتاهرت
تبدو من الغيم إذا ما بدت ***كأنها تنتشر من تحت
فنحن في بحر بلا لجة *** تجري بنا الريح على السمت
نفرح بالشمس إذا ما بدت *** كفرحة الذمي بالسبت

وهو يقول ما أشد خشونة البرد وصعوبته في تاهرت وما أطرف طلوع الشمس بها؛ إذ تبدو محجبة دائما من وراء الغيم وكأنما تنشر من وراء تخت أو ستر صفيق، وإنا لنشعر لشدة البرد كأننا في بحر بلا لجة، وما أشد فرحتنا بالشمس حين تبدو كفرحة اليهودى بيوم السبت يوم عيده الأسبوعى.

وكان بكر بن حماد قد أوضع في الفتنة التي قامت بتيهرت. فلما عاد إليها اعتذر ليوسف بن محمد بقوله:

ومؤنسة لي بالعراق تركتها ***وغصن شبابي في الغصون نضير
فقالت كما قال النواسي قبلها: *** "عزيز علينا أن نراك تسير،"
فقلت جفاني يوسف بن محمد *** فطال علي الليل وهو قصير
أبا حاتم ما كان ما كان بغضة *** ولكن أتت بعد الأمور أمور
فاكرهني قوم خشيت عقابهم *** فداريتهم، والدائرات تدور

وأكرم عفو يؤثر الناس أمره *** إذا ما عفا الانسان وهو قدير

ولبكر مقطوعة حزينة يبكي بها بلدته تاهرت حين خرّبها سنة 296 أبو عبيد الله داعية العبيديين وقضى على الدولة الرستمية، وفيها يقول:

زرنا منازل قوم لم يزورونا *** إنا لفي غفلة عما يقاسونا

لو ينطقون لقالوا الزاد ويحكم *** حلّ الرحيل فما يرجو المقيمونا

الموت أجحف بالدنيا فخرّبها *** وفعلنا فعل قوم لا يموتونا

فالآن فابكوا فقد حقّ البكاء لكم *** فالحاملون لعرش الله يبكونا

ماذا عسى تنفع الدنيا بأجمعها *** لو كان جمّع فيها كنز قارونا

وهو يقول إننا زرنا منازل قوم في قبورهم قضى عليهم أبو عبيد الله ولا نعرف ما يقاسون، ولو نطقوا لقالوا لنا: تزودوا للآخرة فقد حلّ بالمقيمين الرحيل عما قليل، وقد استأصل الموت أهل تاهرت وخربها، ونحن لا نتعظ كأننا لن نموت، والآن فابكوا فالحاملون لعرش الله يبكون عليكم ومن أجلكم، وماذا ينفع الدنيا لو أن حكام تاهرت جمعوا فيها كنز قارون فكل شيء فيها صار إلى فناء.